



قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552



التصوف الاسلامي ومشروعية التسامح جلال الدين الرومي نموذجاً

Islamic Mysticism and the Legitimacy of Tolerance Jalal al-Din al-Rumi as a Model

شويني علي^{1*}، درقام نادية²
^{2,1} جامعة وهران 2- الجزائر

ملخص	معلومات المقال
	تاريخ المقال:
	الإرسال: 2019/06/29
	المراجعة: 2019/11/19
	القبول: 2019/11/23
	الكلمات المفتاحية:
	التصوف الإسلامي،
	وحدة الأديان،
	التسامح،
	ثقافة السلم.
يستند الخطاب الصوفي إلى قيم ومبادئ من شأنها أن تعزز تحقيق التسامح والتآلف بين البشر، إذ يشكل مفهوم التسامح اليوم أحد المواضيع الهامة، التي تتطلب التفعيل على أرض الواقع، ولعل التصوف الإسلامي يحمل العديد من القيم التي يمكنها فعل ذلك، فقد أكد جلال الدين الرومي من خلال ما قدمه على أن التسامح معيار الإنسانية وذلك من خلال التأكيد على مبدأ الحب، فمن خلال الحب الالهي ينعم الانسان بتلك الطاقة الروحية التي تجعل من الذوات الأخرى في تآلف وبالتالي تحقيق التعايش والتسامح، كما أن موضوع وحدة الأديان يشكل أحد أهم المواضيع التي تحقق السلام في العالم.	

Key words:

*Islamic Mysticism,
Unity of Religions,
Tolerance,
Culture of Peace.*

Abstract

The Sufi discourse is based on values and principles that promote the achievement of tolerance and harmony among human beings. Today, the concept of tolerance is one of the important issues that require activation on the ground. Islamic mysticism may have many values that emphasized that. Through all what he presented, Jalal al-Din al-Rumi assures that tolerance is the criterion of humanity by emphasizing the principle of love. Through divine love, man enjoys that spiritual energy that makes other entities in harmony and thus achieves coexistence and tolerance. The issue of the unity of religions is one of the most important topics that bring peace to the world, too.

1- مقدمة

ومنهم من ذهب إلى أن التصوف من الصفة وهذا ما أكد عليه، عبد الله أحمد بن عجيبة، في كتاب "إيقاظ الهمم في شرح الحكم" حيث يقول "إنه من الصفة، إذ جملته اتصاف بالمحسن، وترك الأوصاف المذمومة"⁽⁵⁾ وهو التعريف نفسه الذي ورد في أساس البلاغة للزمخشري أنهم "نسبوا إليهم تشبيها بهم في النسك والتعب أو أهل الصفة، فقليل مكان الصوفية بقلب أحد الفناءين واوا للتخفيف أو إلى الصوف الذي هو لباس العباد وأهل الصوامع"⁽⁶⁾ وقيل أن كلمة التصوف مشتقة من الصفة صفة المسجد وهم فقراء المهاجرين والأنصار، بنيت لهم في مؤخرة مسجد النبي-الصفة-وهي عبارة عن ثلاث حوائط تقيهم البرد والحر وكانوا مسهم الفقر والحاجة⁽⁷⁾. في حين ذهب فريق آخر إلى أن كلمة الصوفي تنسب إلى الصفاء وهذا ما أكد عليه أبو الفتح البستي رحمه الله تعالى حيث قال:

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا ❖❖❖ جهلا وظنوا أنه مشتقاً من الصوف ولست أمتنع هذا الاسم غير الأفتى ❖❖❖ صافي فصوفي حتى سمي الصوفي⁽⁸⁾

2- اصطلاحا

جاء في قاموس محيط المحيط بأن "التصوف التخلق بالأخلاق الإلهية أو هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطناً فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال، وقيل هو تصفيه القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية... والنصح لجميع الأمة والوفاء لله تعالى وإتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في الشريعة"⁽⁹⁾

يقول سهل التستري أيضاً معبرا عن أصول التصوف "أصول طريقنا سبعة: التمسك بالكتاب، والإقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق"، ويقول الجنيد "من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يُتدبى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة"⁽¹⁰⁾

كما أن التصوف يمثل طريق الكمال الانساني لذلك قيل أنه "هو علم يعرف به كيفية ترقى أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعاداتهم، والأمور العارضة لهم في درجاتهم بقدر الطاقة البشرية"⁽¹¹⁾ فالتصوف كممارسة لا يدرك قيمته وحقيقته إلا من تذوق حلاوته :

علم التصوف علم ليس يعرفه ❖❖❖ إلا أخو فطنة بالحق معروف

وليس يعرفه من ليس يشهده ❖❖❖ وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف⁽¹²⁾

في حين يذهب الحافظ جلال الدين السيوطي إلى أن "التصوف في نفسه علم شريف وأن مداره على إتباع السنة وترك البدع والتبري من النفس وعوائدها وحظوظها وأعراضها ومراداتها واختياراتها، والتسليم لله والرضا به وبقضائه وطلب محبته واحتقار ما سواه"⁽¹³⁾ فالتصوف كممارسة يستند إلى إتباع

لقد أضحى موضوع التسامح أحد أهم المواضيع التي تتطلب التفعيل على أرض الواقع وتجسيد ذلك عمليا، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، وقد ظهر هذا المفهوم في الفكر الغربي نتيجة للصراع بين السلطتين سلطة الدينية والمدنية التي شهدتها أوربا، وتم من خلالها الدعوة إلى الدفاع عن قيم الإنسان بالمفهوم الغربي، والتأكيد على حريته، بالإضافة إلى شعار الديمقراطية وحقوق الإنسان وغير ذلك من المفاهيم.

لكن بالعودة لثراثنا الإسلامي والحضاري، نجد في التصوف الإسلامي العديد من الدلالات والقيم التي تؤكد على بعد التسامح والتآلف بين البشر في جميع المجالات، غير أن الدلالة الاصطلاحية للمفهوم في النص القرآني، لا تؤكد على مفهوم التسامح بل مصطلح العفو، وذلك امتثالا لقوله تعالى ﴿فَاَصْلَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (سورة الحجر، الآية 85)، وهذا ما أكد عليه الصوفية حيث كان العفو والتسامح نهجا لحياتهم وخلقاً من أخلاقهم فيما بينهم، وأدباً من آدابهم مع غيرهم، فكان الصفح عن عثرات إخوانهم وعن غيرهم، وترك تأنيبهم عليها. فمولانا جلال الدين في كل مؤلفاته يدعو إلى احترام الإنسان والأديان لأنها في جوهرها حقيقة واحدة، وعلى هذا الأساس طرح الإشكال الآتي:

- ما هو مفهوم التصوف الإسلامي؟

- ما هو مفهوم التسامح؟ دوافعه ومرتكزاته لدى الصوفية؟

- كيف ينظر جلال الدين الرومي إلى التسامح؟

أولاً- مفهوم التصوف الإسلامي

1- لغة

لقد تعددت التعاريف المتعلقة بالتصوف من جانبه اللغوي والاصطلاحية لذلك سنحاول إبراز بعض المفاهيم. فأول ما يلاحظ "أن مادة التصوف لا ترجع إلى أصول لغوية ثابتة، فهي مادة مجهولة الاشتقاق والمصدر، ولذلك اختلف علماء اللغة في أمرها على عدة أقوال، أثارت حولها الجدل واتسع لأجلها النقاش"⁽¹⁾ بحكم أن الإنسيق في تأطير المفهوم الحقيقي لهذه الكلمة أخذ عدة سياقات، فهناك من ذهب إلى القول بأن التصوف نسبة إلى الصوف وهذا ما ذهب إليه أبو سراج الطوسي⁽²⁾ أن الصوفية تنسب إلى لبس الصوف الذي اتخذوا منه شعاراً ورمزاً حيث يقول "نسبوا إلى ظاهر اللباس، ولم ينسبوا إلى أي نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار (المساكين) المنتسكين"⁽³⁾ وقد عمد إلى هذا التصنيف نسبة إلى أصحاب عيسى عليهم السلام فنسبهم إلى ظاهر اللباس قال تعالى ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾⁽⁴⁾ وقد كان الحواريون يلبسون لباس الأبيض وذلك تعبيراً عن نقائهم وإخلاصهم لنبيهم عيسى عليه السلام.

هو علم التزكية للبشر، بل إن الله تعالى في القرآن الكريم قد اشترط ورهن وربط الفلاح والنجاح والجنة بوجوب المرور عبر التزكية علماً وتطبيقاً⁽²¹⁾ كما أن التصوف يمتاز "بنوع خاص من المعرفة لا نجدها في أنواع أخرى من الفكر الإنساني والإسلامي، فالمعرفة الصوفية معرفة ذوقية كشفية إلهامية باطنية تأتي القلب مباشرة دون إعمال العقل ودون استخدام الحواس فهي معرفة خاصة فردية، ونشاط روحي خاص بكل صوفي، ولذلك فليس من الضروري أن تتشابه البدايات والنهايات عند الصوفية"⁽²²⁾

فالحقيقة التي ينبغي التأكيد عليها أن التصوف يحمل في طياته الصفاء والنقاء فالفطرة السريرة للإنسان هي التي تجعله يحمل قيماً ومبادئ تدفع بالأمة إلى أن ترتقي في مراتبها، ليحقق التعايش المشترك بين جميع أصناف الأمة سواء كانت إسلامية أم غير ذلك من الأمم، فتاريخ التصوف يبرز هذه القيم النبيلة التي تركز على مبدأ التسامح بين البشر، وإحلال الألفة التي تساعد على استمرار الأمة وبناء النهضة المنشودة. "إن التصوف خلاق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية، والأساس أن يكمل الصدق ويسود الإخلاص بحيث لا تملك النفس أن تنصرف عما آمنت به، واطمأنت إليه في عالم المعاني، وكذلك يمثل التصوف في صور كثيرة، فيكون في الحب، ويكون في الولاء، ويكون في السياسة حين تقوم على مبادئ تتصل بالروح والوجدان"⁽²³⁾

ثانياً: مفهوم التسامح

لغة: "قيل تسامح في الشيء، تساهل فيه والمسامحة المساهلة"⁽²⁴⁾ وقيل بأنه "سعة صدر تفسح للآخرين أن يعبروا عن آرائهم ولو لم تكن موضوع تسليم أو قبول، ولا يحاول صاحبه فرض آرائه الخاصة عن الآخرين"⁽²⁵⁾

اصطلاحاً: تعددت المرجعيات التي يتحدد في ضوءها مفهوم التسامح، ففي اللغة العربية يكون أقرب إلى مفهوم اللاعنف الذي يعد دالاً لما ينطوي عليه مفهوم اللاعنف من مغزى وعمليات⁽²⁶⁾ ومن ناحية أخرى فالتسامح مبدأ سياسي يشير إلى أن الأفراد عليهم أن يتعلموا كيف يعيشون ويسمحون لغيرهم أن يعيشوا، ومن ثم يتيحوا للآخرين ممن يعتنقون رؤية مختلفة عن رؤاهم ممارسة الرؤى دون تدخل منهم⁽²⁷⁾، وقيل أن التسامح "هو أن تترك لكل إنسان حرية التعبير عن آرائه، وإن كانت مضادة لأرائك، والقريب من هذا قول (غوبلر) "أن التسامح لا يوجب على المرء التخلي عن معتقده، أو الامتناع عن إظهارها أو الدفاع عنها أو التعصب لها، بل يوجب عليه الامتناع عن نشر آرائه بالقوة والقسر والقدح والخداع"⁽²⁸⁾. فالتسامح هو معيار قيمى وواجب أخلاقي للإنسان من خلاله يناشد الحقيقة رغم تعدد صورها، كما "كلمة تسامح Tolérance ولدت في القرن السادس عشر من الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، فقد انتهى الأمر بأن تساهل الكاثوليك مع البروتستانت، وبالعكس، ثم

السنّة المطهرة وطلب محبة الله عكس ما كان مطروح عند بعض المعادين له.

لعل التصوف الإسلامي وإن دار حوله خلاف بخصوص المرجعية الأساسية لظهوره، كون أن هناك إرهاسات خارجية⁽¹⁴⁾، ولكن هذا لا يمنع من وجود نصوص شرعية تؤكد على بطلان الزعم "إن في القرآن البذور الحقيقة للتصوف عامة، وهذه البذور كافية لوحدها بتنميتها في استقلاله عن أي غذاء أجنبي"⁽¹⁵⁾ "أن في سيرة النبي صل الله عليه وسلم وسيرة صحابته والتابعين مثال واضح لحياة رجال زهدوا في الدنيا ولكنهم لم يهجروها، وعبدوا الله ولكنهم لم ينقطعوا إليه، وأحلوا الطيبات من الرزق ولم يحرموها، أخذوا بفضيلة الوسط فلم يفرطوا ولم يفرطوا"⁽¹⁶⁾ وكانت حياة محمد النبي صل الله عليه وسلم قبل البعث وبعدها قد تميزت بالتحنن والخلوة والاكتفاء بالقليل من الزاد والإكثار من المجاهدات والرياضات، وهي حياة تمثل الصورة الأولى المشرقة للحياة التي كان يحياها الزهاد والعبادة والصوفية فيما بعد، وهي حياة تتسم بالأذواق والمواجيد والمقامات والأحوال والكشف والإشراق... وهي سبيلهم إلى الحقيقة وطريقهم إلى الله"⁽¹⁷⁾ لقد اعتبر "لويس ماسنيون" أن التصوف الإسلامي في أصله وتطوره، صدر من إدامة تلاوة القرآن وتدبره والتخلق بأخلاقه، ومنه استمد خصائصه المتميزة"⁽¹⁸⁾ يقول أبو سراج الطوسي: "اعلم أيديك الله بالفهم وأزال عنك الوهم، أن أبناء الأحوال وأرباب القلوب لهم أيضاً مستنبطات من معاني أحوالهم وعلومهم وحقائقهم، وقد استنبطوا من ظاهر القرآن وظاهر الأخبار، ومعاني لطيفة باطنه وحكما مستطوفة وأسرار مذخورة..."⁽¹⁹⁾

إذن فالتصوف عموماً فلسفة حياة يعمل بمقتضاها الإنسان على السعي إلى تحقيق الكمال الأخلاقي والسعادة الروحية ومعاونة الحقيقة، على الرغم من أنه قد يتداول في بعض الأوساط الدينية والإعلامية التي ترفع شعار السلفية، أن التصوف تراث ديني سابق عن الإسلام، ويتناولونه بمعول البدعة والضلالة، وربما التكفير والإخراج من الملة، لكن مراجعة عابرة للقرآن الكريم تؤكد أن علم التزكية (الذي سمي فيما بعد بالتصوف) هو علم قرآني محض ورد ذكره تصريحاً وتلميحاً في الكثير من آيات الذكر الحكيم، في أكثر من 67 مرة بمشتقاته"⁽²⁰⁾

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة آل عمران، الآية 164)

وكذلك قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، (سورة البقرة، الآية 129) وقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (سورة الأعلى، الآية 14) وقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَاةً﴾ (سورة الشمس، الآية 9) فهذه الآيات وأمثالها تؤكد "أن وظائف الأنبياء والرسل كانت عبر التاريخ هي إيصال علم خاص

إعتذروا عنهم، وإن مرضوا عادوهم" (33) فهذه الآية هي دعوة إلى الإقتداء بهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم في سلوكهم وتعاملهم، وهذا ما ينطبق على معظم شيوخ الصوفية باعتبار أنهم إنتهجوا نهج القرآن والسنة الحنيفة، والسلف الصالح، في سلوكياتهم وتعاملهم مع الذوات الأخرى، فالتسامح منهج لدى الصوفية منهله هو الدين الإسلامي لذلك نجدهم حريصين كل الحرص على السلوك التعبدى أضف إلى ذلك أنهم يجعلون النبي محمد صل الله عليه وسلم وصحابته هما القدوة التي ينبغي أن يسير عليها كل صوفي، لأن أصل التصوف ملازم للكتاب والسنة. "فإن دلالة التسامح، إنما تتحدد سلفاً بما أقره النص الديني، وإذا كان النص قد خلا من هذه اللفظة بمعناها الاصطلاحي، فإنه عبر عنها بما يفيد معانيها بألفاظ العفو، والمغفرة، والرحمة، والمحبة، والإحسان، وغيرها، وبالعودة لمصنفات ابن عربي، وخاصة في موسوعته الصوفية "الفتوحات المكية" وكذلك مصنفه "فصوص الحكم" فإننا نجده يقيم نظرية حول الإنسان، والدين، والكون، مؤسسة على هذه المعاني الأخلاقية، تصلح لأن تكون نظرية في التسامح بكل أبعاده، وخاصة الديني منه" (34) وهو مانجده أيضاً في كتب مولانا جلال الدين الرومي حيث "يعتبر كتاب المثنوي عمله الأبرز، أفضل عمل روحي كتبه إنسان، فمحتوياته تتضمن كل أطياف الحياة والأرض، كل فعالية من فعاليات الإنسان، الدين، الثقافة، السياسة، الجنس، الأسرة كل نوع من شخصية الإنسان، من المتشرد إلى صفوة القوم" (35) فالتصوف عند مولانا ليس مبنياً على الطريقة العملية الخاصة، بل التصوف برأيه عبارة عن طلب الكمال والبحث عنه في عالم الحقيقة والعشق ومن يصل إلى ذروة الكمال يؤثر ذلك على حياته الفردية والاجتماعية ويوسع دائرة رؤيته، ولا يرى إلا الجمال (36) أما عن لغة التعبير لدى مولانا فقد كانت بسيطة جداً فلا نجد في آثاره المصطلحات الصوفية كثيراً، لأنه كان يتحدث مع الناس بلسان الناس، وكان يتجنب التعقيدات اللفظية والمصطلحات الصوفية الصعبة، وكان يشرح أفكاره وآرائه الصوفية والأخلاقية، بمساعدة الأمثال والحكم والحكايات الرائجة بين الناس، والقصص القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الحكماء، ومن هذا الأسلوب جعل الناس يلتفون حوله ويرفع من قيمته العلمية ويكون مناراً لطريق الحق غايته بلوغ الكمال، ومن المعلوم أن لحظة التحول لدى جلال الدين الرومي هي عند مقابلته بالمرشد شمس الدين التبريزي (37) الذي أنار له الطريق الصوفي وحوله من التدريس والوعظ إلى التصوف وألهب بذلك تيار الحب وأبدع من خلال ذلك أشعاراً وحكما ظلت خالدة ومن هذا كان منهجه في التصوف "يميل إلى الحب والوجد، ويجعل من وجده وسيلة للوصول إلى مدرج الكمال، بطريقة يركز وجده الصوفي في شخص صوفي يعد نموذجاً للجذبات الصوفية" (38)

صار التسامح يرتجى تجاه جميع الديانات وكل المعتقدات وتعتبر رسالة جون لوك في التسامح أول الإسهامات الفكرية التي تعالج قضية التسامح الديني في أوروبا، ركز فيها على فكرة أساسية تتمثل في الفصل بين ماهو ديني، وماهو دنيوي " ينبغي التمييز بدقة ووضوح بين مهام الحكم المدني وبين الدين، وتأسيس الحدود، الفاصلة والعدالة بينهما، وإذا لم نفعّل هذا فلن تكون هناك نهاية للخلافات التي ستنشأ على الدوام بين من يملكون الاهتمام بصالح نفوس البشر، من جهة، ومن يهتمون بصالح الدولة من جهة أخرى" (29)

يرى الأستاذ عبد القادر بوعرفة أننا "لا نجد للتسامح في الثقافة العربية من حضور، فالنصر المؤطر للمسلمين في علاقاتهم مع بعضهم وغيرهم اتجه نحو مصطلح العفو" (30) لأن مفهوم التسامح ظهر بصورة جلية في الفكر الغربي نتيجة الصراعات التي شهدتها أوروبا، فالحضارة الإسلامية حضارة فعل وليس قول على حد تعبير طه عبد الرحمن، وقد برز التسامح في الحضارة الغربية في جانبه السياسي والدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، وتحرير الإنسان من السلطة الدينية، لكن في الحضارة الإسلامية المعنى يختلف. إن "مصطلح العفو يدل دلالة قاطعة على القوة، فلا يمكن أن يعفو إلا من كان قادراً وقوياً، وتلك هي حال الله مع عباده، إن العفو كمفهوم قرآني يجعل التنازل من الأقوى للضعيف وليس العكس، كما هو الحال في مصطلح التسامح، إذ لا يمكن للضعيف أن يعفو لكونه فاقداً للقوة والقوة معا" فالنص القرآني يؤكد على مفهوم العفو بدل التسامح وهذا ما نجده عند الصوفية إذ يدعوا ابن عربي إلى أن تعامل كل البشر بالشفقة والرحمة حيث يقول "فاعمل عباد الله بالشفقة والرحمة، كما أن الله يرزقهم على كفرهم وشركهم، ومع علمه بهم، وما رزقهم إلا بعلمه.... فله الحجة البالغة على كل أحد مهما وقع نزاع ومحاجة" (31) فالنصوص الصوفية وإن لم تذكر مفهوم التسامح إلا أنها تصوغ قرائن لفظية مثل العفو والألفة، والصفح، الحب... الخ فكل هذه المفاهيم تعبر عن التسامح.

ثالثاً: دوافع ومرتكزات التسامح لدى الصوفية

إذا اعتبرنا بأن التصوف الإسلامي نشأ نتيجة عوامل داخلية وكان السبب الديني هو الأساس الذي يستند إليه شيوخ الصوفية، أي أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما الدافع والعامل الأساسيين لظهور قيمة التسامح، فكانت أقوالهم وأفعالهم تعبيراً عن الشرع الحنيف، والإقتداء بالنبي محمد صل الله عليه وسلم في كل صغيرة وكبيرة، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ممن يعاشرون الناس بالخلق الحسن، فالتسامح واللين معيار السلوك الإنساني، وقد ذكرهم الله تعالى بقوله ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّامِرِ﴾ (32) حيث يفسر القشيري هذه الآية في كتاب لطائف الإشارات بقوله "أي يعاشرون الناس بحسن الخلق، فيبدؤون بالإحسان ولا يطلبون الانتصاف، وإن عاملهم أحد بالجفاء قابلوه بالوفاء، وإن أذنب إليهم قوم

رابعاً: التسامح لدى مولانا جلال الدين الرومي

أ. من الحب الإلهي إلى التسامح الإنساني

لقد حاول مولانا جلال الدين الخوض كما سبق وأن ذكرنا في العديد من القضايا، إذ شكل موضوع التسامح والعفو المحور العام في فكره، فإذا ذكر مولانا جلال الدين الرومي ذكر معه الحب لأنه الحلقة الأولى من حلقات الاعتراف بإنسانية الإنسان حيث يقول "إن السعي وراء الحب يغيرنا، فما من أحد يسعى وراء الحب إلا وينضج أثناء رحلته، فما أن تبدأ رحلة البحث عن الحب حتى تبدأ تتغير من الداخل والخارج" (39) فإن منبع الحب والعشق هو الإحسان الذي يعتبر المحور الأساسي في الفكر الصوفي "ولما كان العشق جوهر الحياة وهدفها الأساسي السامي، لأنه يقرع أبواب الجميع بم فيهم الذين يتحاشون الحب" (40) ويعتبر جلال الدين الرومي أن المحبة نوعان: محبة الخالق، ومحبة الإنسان للإنسان، فأما الأولى إذا تحققت وتشعب بها الإنسان كان نقاؤه وصفاءه معياراً لإبراز قيم التسامح في العالم كله حيث يقول "أن محبة الحق البارئ هي أفضل وأسمى أنواع المحبة وهي تختلف عن محبة غير الحق الإنسان للإنسان" "أما في حق البارئ تعالى فلا يتصور إفراط البتة: كلما زادت المحبة كان ذلك أحسن" (41) وبذلك ينعم الإنسان بالأمن الداخلي لأنه وجه حبه للخالق "إن الحب الخالد لا يجدر إلا بالخالد، إنه لا يحمل بمن كتب له الفناء والأفول، إنه حق الحي الذي لا يموت، الذي يفيض الحياة على كل موجود" (42) فالحب الإلهي أسمى وأرقى أنواع الحب، لكن مولانا جلال الدين لا يقتصر حبه على الباري فقط بل هو القاعدة لإحلال السلم والأمن والتعايش في هذا العالم "إن هذا الحب البريء السامي يصل بالإنسان إلى حيث لا توصله الطاعات والمجاهدات" (43) وبذلك يكون الحب "هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء من الثرى إلى الثريا" (44) هذا فيما يخص محبة الخالق. أما عن محبة الإنسان للإنسان فقد أكد مولانا جلال الدين الرومي أنها موجودة عند جميع الناس ولكن هناك موانع تعيق تحصيل ذلك الحب والتواصل بين أفراد المجتمع، وتحقيق مبدأ التسامح، حيث يقول "فالمحبة كامنة في كل إنسان لكن ثمة موانع تحجبها، وعندما تزول تلك الموانع تظهر تلك المحبة" (45) ومن الموانع التي تمنع تحقيق المحبة بين أفراد المجتمع ولا تحقق مبدأ التآلف بين المجتمع الإنساني، هو مسألة العداوة حيث يقول مولانا "وعندما تعادي كل إنسان فإن صورة الأعداء تظهر أمامك وكأنك تطوف ليلاً ونهاراً في الأراضي المشوكة والمليئة بالحيات" (46) بهذا تكون مصدر العداوة سد منبع نحو تحقيق التسامح.

لكن الميزة الجوهرية عند رجال الصوفية أنهم لا يحملون هذا النوع من العداوة بين الناس ويتمسون فيهم الخير "ومن هنا فإن الأولياء يحبون الناس كلهم، ويعتقدون فيهم خيراً، وهو إذ يفعلون ذلك، لا يفعلونه من أجل الآخرين بل يفعلونه من أجل أنفسهم، ابتغاء ألا تظهر لأنظارهم صورة مكروهة

ومبغوضة" (47) فتصور مولانا جلال الدين يجعل من صورة الآخر بالرغم من العيوب التي يملكها، إلا أنه يستشف الخير فيه، ولا يحمل أي عداوة له، وهذا الدافع هو ما يشجع على التسامح، وتحقيق مبدأ الاحترام وتقبل الآخر وبذلك "فمشاكل الأفراد والجماعات يرجع أكثرها إلى انقسام عري المودة بين الناس، ولو عرفت الجماهير كيف تتعامل وكيف تتواد لانعدمت أصول كثيرة من جرائم الشقاق" (48) فالمودة هي الجوهر الحقيقي في تحقيق التسامح، لذلك "فقد اجتهد الأولياء بقدر ما استطاعوا أن يكون كل ما في عقولهم وذواكرهم أمراً محبوباً ومطلوباً، لكي لا تشوش كراهة المبعوض طريقهم، وهكذا فإن كل ما تفعله في حق الناس عندما تذكرهم بخير أو شر يرجع إليك أنت" (49) وبذلك فإن التصوف الإسلامي يعبر عن حقيقة الإسلام الداعية إلى تحقيق التسامح والتآلف بين البشر.

بد من الاعتراف بالأديان إلى التعايش

لقد أكد الصوفية من خلال مبادئهم، على احترام الآخر من أجل تحقيق التسامح، الألفة، العفو، محاربة الظلم... الخ، ويمكن القول أن الحلاج أول من نادى بوحدة الأديان من المتصوفة، فقد قال "الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم أما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما" (50) وهذا ما أكد عليه من خلال ذلك الحوار الذي دار بينه وبين من سمعه يشتم يهوديا وقد اعترض على ذلك وقال "إن اليهودية والنصرانية والإسلام، وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة، وأسماء متغايرة، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف" (51) حيث يقول:

تفكرت في الأديان جد محقق ❖ فالفيتة أصلاً له شعب جما

كما أن جلال الدين الرومي عبر في كثير من المواضع عن التسامح والاعتراف بالأديان حيث يقول "فلا أنا مسيحي، ولا أنا يهودي، ولا أنا مجوسي، ولا أنا مسلم...!!... لأنني أنا في الحقيقة من روح الروح (الحبيب) (52) !! فهذه الأبيات تجسد كل ما يختلج في أعماقه من مبادئ أخوية، إنسانية ورسالة حقانية، ناهضة إلى الإخاء ووحدة الأديان وحب وإخلاص وشوق إلى روح الحبيب" (53) وبهذا التصور تتحقق مسألة التسامح وتنعم الإنسانية بكل المعاني التي تفضل العلاقات مع بعضها البعض في إطار التكامل الإنساني، فالتصوف الإسلامي يؤكد على مبدأ "الاختلاف الديني والثقافي، والعرق، والتعامل مع الإنسان كإنسان مع ضمان كل حقوقه، وأصبح بفعل هذه المبادئ مجتمعاً مفتوحاً لا يعرف سياسة العزل ... بل يؤكد على التعايش من خلال الاختلاط التام" (54) ومن أبرز قيم التسامح والعيش المشترك ومن نماذج التسامح والتواصل الديني عند الصوفية أيضاً ما روى أنه لما خرجت جنازة مولانا جلال الدين الرومي ازدحم عليها أهل بلده، وشيعها حتى النصاري واليهود وهم يتلون الإنجيل والتوراة، وبلغ ذلك حاكم البلد قونية، فقال لرهبانهم: مالكم ولجنازة عالم مسلم فأجابوه: "به عرفنا

حقيقة الأنبياء السابقين، وفيه رأينا سيرة الأولياء الكاملين" (55)

كما نجد فكرة الاعتراف بالأديان عند ابن عربي حيث يقول أن "كل دين لا يحوي إلا قسماً واحداً من الحقيقة، إن الله محيط بالإيمان مهما تنوع، لذا كان التنوع بين الأديان أمراً باطلاً، وعلى المتصوف العيش دين واحد... وما من امرئ ألا يبتهل ويؤمن برحمته، فالدين كله واحد، وأن العابد ينظر إلى جميع الصور على أنها حقيقة واحدة هي الله" (56)

حيث يقول ابن عربي:

لقد صار قلبي قابلاً كل الصور ❖ فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف ❖ وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت

ركائبه فالدين ديني وإيماني (57)

فمسألة التسامح تقتضي التكامل مع مختلف التيارات الحاصلة في المجتمع من اعتقاد وتدين وهذا ما أكد عليه التصوف الإسلامي وهو استيعاب الآخر بمختلف خصوصياته، وهو ما يشجع تحقيق على العيش المشترك "من نماذج التسامح والتواصل الديني عند الصوفية ما قام به الصوفي الكبير الأمير عبد القادر الجزائري عندما أنقذ خمسة عشر ألف مسيحي من القتل في الفتنة التي اشتعلت في دمشق بين الدروز والنصارى سنة 1860م." (58)

فتاريخ الصوفية يؤكد على هذا الموقف النبيل الذي رسم معالم التسامح والتعايش بين الشعوب، في أجواء الحوار بين الأديان وكمبدأ أولي يعلن الأمير أن الخلق كلهم يعرفون الله ولو بوجه من الوجوه لأن "المعرفة بالله ثابتة فإن الله ما خلق الخلق إلا ليعرفوه فلا بد أن يعرفه الخلق ولو بوجه ما" (59) بذلك يكون الإنسان من خلال ضمان الحقوق والتعايش بين الأفراد قد ارتقى في تصور لتحقيق المشترك الإنساني وتحقيق التعايش لأنه "لا يمكن بناؤه إلا من خلال تعاون البشرية على الخير، وعلى ما فيه مصلحة الإنسان، والابتعاد عن العدوان وكل ما هو في غير مصلحة الإنسان" (60) وبذلك فإن جلال الدين الرومي يؤكد على مبدأ المصلحة التشاركية بين البشر لتحقيق التكامل والانسجام والاعتدال. يقول مولانا " فإذا رأيت في أخيك عيباً، فإن ذلك العيب الذي تراه فيه هو فيك أنت، العالم مرآة، التي ترى فيها صورتك" (61) فتقويم الأخطاء والزلات دليل على الرغبة في تحقيق التسامح والعفو. فالصوفية يرون "أنفسهم مسؤولين عن رعاية ما سانه الحكماء في مختلف الملل من أدب الصداقة والوداد" (62) وذلك من أجل التعايش بين أفراد المجتمع الإنساني.

خاتمة

في الختام نعتبر أن التصوف الإسلامي أكد من خلال الكثير من النصوص على مسألة التسامح بين أفراد المجتمع الإنساني وأن المحبة بنوعها سواء (محبة الخالق، أو المخلوق) معيار

أساسي لتحقيق إنسانية الإنسان، وبالتالي تحقيق التسامح والتآلف بين البشر، فالإنسان هو المخلوق الذي شرفه الله من بين المخلوقات في هذه الأرض، وبالتالي لابد عليه من الحفاظ على التناغم في هذه الحياة. فمن خلال الحب الإلهي يصل الإنسان إلى الحب الإنساني الذي يؤكد على مبدأ الإقرار بالاختلاف والاعتراف بالآخر في إطار عدم تجاوز الحدود، لأن الاختلاف حقيقة ثابتة منذ أن خلق الله الإنسان في الوجود، وبالتالي تصبح مسألة الأديان واختلافها أمر حتمي في الحياة، وهذا التنوع على مستوى الأديان لم يمنع رجال الصوفية من تحقيق التعايش، فقد أكد مولانا جلال الدين الرومي على أن الأديان كلها تعبر عن حقيقة واحدة على الرغم من اختلافها فجوهر واحد وهو عبادة الله فالإنسانية اليوم تحتاج إلى التجربة الصوفية لما تحمله من مبادئ سامية ترفع من قيمة الإنسان، وقد أكد مولانا جلال الدين الرومي على القيم الإنسانية ودعا إلى الأخوة ومبدأ التآلف بين جميع البشر، وهذا ما تؤكد مؤلفاته التي تتطلب الدراسة الجادة، والتي تتضمن مبدأً أساسياً يتمثل في التسامح والحوار والألفة، وتجاوز الخلافات المذهبية.

إن ما يميز جلال الدين ليس عبقريته الفذة كشاعر فحسب، بل عالميته وإنسانيته التي تستوعب كافة الأديان والمذاهب، فالغرب اليوم قد استوعب هذه المفاهيم وعمل على محاولة تطبيقها على أرض الواقع وما تشهده الدراسات على مولانا جلال الدين أكبر دليل على أن هذا المتصوف أرسى قيم التسامح والإنسانية.

تضارب المصالح

❖ يعلن المؤلفون أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

الهوامش

- 1- علي بن السيد أحمد الوصيفي، موازين الصوفية في ضوء الكتاب والسنة، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، (د/ط)، 2002، ص 36
- 2- أبو نصر عبد الله السراج الطوسي (توفي 378 هـ / 988 م) هو زاهد. كان شيخ الصوفية، على طريقة السنة. ملقب بطاوس الفقراء كتاب: "اللمع في التصوف" وهو بمثابة موسوعة في تاريخ التصوف الإسلامي وطبقات الصوفية وعلومهم ومصطلحاتهم وأقوالهم وأحوالهم. ويعد أستاذاً للهجويري مؤلف "كشف المحجوب"، ولأبي عبد الرحمن السلمي مؤلف "طبقات الصوفية" الذي تتلمذ عليه القشيري صاحب "الرسالة القشيرية"
- 3- أبو نصر سراج الطوسي، اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد القادر، دار الكتب الحديث، مصر، (د/ط)، 1960، ص 41.
- 4- سور المائدة، الآية 112.
- 5- عبد الله أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، دار المعارف، مصر، (د/ط)، (د/س)، ص 05
- 6- أبو القاسم جابر الله محمود عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، محمد باسل عين السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1998، ص 564
- 7- محمد البيهلي، الحقيقة التاريخية للتصوف، المرجع السابق، ص 10
- 8- عبد الله أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، المرجع السابق، ص 05.
- 9- المعلم بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، (د/ط)، 1987،

- 10- الشيخ أحمد زروق، شرح حكم ابن عطاء الله، تحقيق: عبد الحليم محمود، دط، مطابع دار الشعب، القاهرة، 1985، ص 19.
- 11- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسمى الكتب والفنون، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د/ط)، (د/س)، ص 413.
- 12- المرجع نفسه، ص 414.
- 13- الحافظ جلال الدين السيوطي، تأييد الحقيقة العلية وتشديد الطريقة الشاذلية، تحقيق عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص 45.
- 14- وهذا ما ذهب إليه الجابري (المصطلح العرفاني في الإسلام، ليس إسلامي المضمون ولا عربي الأصل، بل هو مصطلح منقول إلى الإسلام وإلى العربية، مثله في ذلك مثل الموقف العرفاني نفسه والنظريات العرفانية ذاتها الصوفية منها والشيعية) أنظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط9، 2009، ص 374.
- 15- عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، ط1، 1993، ص 46.
- 16- ابن عربي، فصوص الحكم، للشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي المتوفى 638هـ، دار إحياء الكتب العربية، (د/ط)، سنة 1946، ص 100.
- 17- محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د/ط)، 1984، ص 37-38.
- 18- عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، المرجع السابق، ص 46.
- 19- أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، المرجع السابق، ص 150.
- 20- فرعون حمو، حوار الأديان من ومنظور نظرية التجليات عند الصوفية، مؤسسة دراسات وأبحاث، مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب، 06 سبتمبر 2016، ص 06.
- 21- المرجع نفسه، ص 06.
- 22- محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي، دط، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1984، ص 9، 10.
- 23- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، (د/ط)، 2012، ص 28.
- 24- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، (د/ط)، 1982، ص 271.
- 25- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (د/ط)، 1983، ص 44.
- 26- البعلبكي، قاموس المورد، دار العلم للملايين، بيروت، 1986، ص 930.
- 27- وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2001، ص 113.
- 28- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص 271.
- 29- جون لوك، رسالته في التسامح، ترجمة: منى أبو سنن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 1997، ص 19.
- 30- عبد القادر بوعرفة وآخرون، التسامح الفعل والمعنى، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات السياسية والفكر بالجزائر، دار القدس العربي، الجزائر، ط1، 2010، ص 14.
- 31- المصدر نفسه، ص 26.
- 32- سورة الرعد، الآية 22.
- 33- أبي القاسم القشيري، تفسير القشيري المسمى لطائف الاشارات، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2007، ص 107.
- 34- عبد القادر شاريف، ابن عربي وقضية التسامح الديني، مجلة الحضارة
- الإسلامية، جامعة وهران السانتيّة، المجلد 15، العدد 20، ص 120.
- 35- آرثر جون اربري، مختارات من رباعيات مولانا جلال الدين الرومي، ترجمة: عمار كاظم محمد، سطور للنشر والتوزيع، بغداد، العراق، ط1، 2017، ص 17.
- 36- فرخ ناز رفعت جو، العرفان الصوفي عند جلال الدين الرومي، دار الهادي، ط1، 2008، ص 245.
- 37- شمس الدين التبريزي محمد بن ملك داد التبريزي، (582-645 هـ) هو عارف ومتصوف وشاعر فارسي مسلم صوفي يُنسب إلى مدينة تبريز. يُعتبر المعلم الروحي لجلال الدين الرومي (مولانا) ويتضح أن شمس الدين كان على إطلاع واسع على (كتاب المقالات) أنه كان رجلاً خبيراً وأنه أمضى في طي مدارج السلوك سنين، ولعل هذا البيت لمولانا يكون أيضاً دليلاً آخر: رجعت بسببك شاباً جميلاً سعيداً أي شمس الدين الطاعن في السن (انظر هامش كتاب فروزانفر بديع الزمان، من بلغ إلى قونية، ص 92) كتب ديوان التبريزي (الديوان الكبير) الذي كتبه في مجال العشق الإلهي، قام برحلات إلى مدن عدة منها حلب وبغداد وقونية ودمشق. أخذ التصوف عن ركن الدين السجاسي، وتلمذ عليه جلال الدين الرومي. اعتكف شمس التبريزي وجلال الدين الرومي أربعين يوماً في مدينة قونية لكتابة قواعد العشق الأربعون، ويقال أن ذلك كان سنة 642هـ أي وعمره 60 سنة (انظر كتاب فروزانفر بديع الزمان، من بلغ إلى قونية، ص 90) ثم قام شمس التبريزي بالفرار إلى دمشق قبل أن يعود إلى قونية. ثم قتل في قونية والبعض يقول خوي على يد جماعة من المناوئين له سنة 645 هـ، وقيل سنة 644 هـ.
- 38- غناية الله إبلاغ الأفغاني، جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام، الدر المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط1، 1987، ص 141.
- 39- يوسف أبو الحجاج الأقصري، جلال الدين الرومي، الدار الذهبية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2018، ص 48.
- 40- المرجع نفسه، ص 42.
- 41- جلال الدين الرومي، فيه ما فيه، ترجمة: عيسى على العاكوب، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط6، 2017، ص 278.
- 42- أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج1، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط3، 2007، ص 408.
- 43- المرجع نفسه، ص 407.
- 44- المرجع نفسه، ص 406.
- 45- جلال الدين الرومي، فيه ما فيه، المصدر السابق، ص 279.
- 46- المصدر نفسه، ص 273.
- 47- المصدر نفسه، ص 273.
- 48- محمد الشربيني، جلال الدين الرومي، دار الخطاب للنشر والتوزيع، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 2018، ص 282.
- 49- جلال الدين الرومي، فيه ما فيه، المصدر السابق، ص 273.
- 50- عبد الحميد ديوان، الحلاج بين التصوف والفلسفة، دار النهج للنشر والتوزيع، حلب، سوريا، ط1، (د/س)، ص 89.
- 51- المرجع نفسه، ص 89.
- 52- مصطفى غالب، جلال الدين الرومي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت لبنان، (د/ط)، 1982، ص 26.
- 53- المرجع نفسه، ص 27.
- 54- محمد خليفة حسن أحمد، الحوار منهجاً وثقافة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 2008، ص 116.
- 55- مجلة مسائل، العدد الثاني، جوان جويلية 1998، ص 21.
- 56- مجموعة من الأكاديميين، جدلية العلاقة بين التصوف والعرفان، مكتبة مؤمن قريش و تموز للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2014، ص 63.
- 57- ابن عربي، ترجمان الأشواق، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 62.

- 58- فرعون حمو، حوار الأديان من منظور نظرية التجليات الصوفية، المرجع السابق، ص 05.
- 59- الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، ج 2، تحقيق عاصم إبراهيم الكيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص372.
- 60- محمد خليفة حسن أحمد، الحوار منهجا وثقافة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 2008، ص 120.
- 61- جلال الدين الرومي، فيه ما فيه، المصدر السابق، ص 35.
- 62- محمد الشرييني، جلال الدين الرومي، دار الخطاب للنشر والتوزيع، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 2018، ص282
-

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

المؤلف شوييني علي، درقام نادية (2020)، التصوف الاسلامي ومشروعية التسامح جلال الدين الرومي نموذجا، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد12، العدد 01، جامعة حسيبة بن بوعلی بالشلف، الجزائر، ص ص: 73-80